من آثار العراق

الجسر العبـــاسى

للأستاذ ميخائيل عواد

١ — تصدير

إذا جوّلنا فى أنحاء العراق شاهدنا عدداً لا يستهان به من الجسور المتنوعة الطراز ، المتفاوتة الحجم ، تعلو أنهاره ونهيراته ، بينها القديم الأثرى ، وبينها الحديث المكين ؛ كما أن التاريخ ينبئنا بوجود جسور قديمة شيدت فى أشهر المدن العراقية المطلة على المياه ، غير أن يد الزمان قد عبثت بها فجعلتها أثراً بعد عين

وإلى القارىء هذا البحث فى أحد الجسور القديمة فى العراق ، نعنى به « الجسر العباسى » القائم بجوار بلدة زاخو فى شمالى العراق

ولقد استقصينا عدداً من التصانيف العربية القديمة والحديثة ، طائفة من كتب الرحالين والسياح الفرنج ؛ أملاً فى الوقوف على ما ينير السبيل أمامنا فى هذا الموضوع ، غير أننا لم نعد من جميعها إلا بالنزر اليسير من العلم بأمر هذا الجسر . ولعل أهم ما وقفنا عليه ما دونه الرحالة الأثرى « بروسر » فى كتابه عن « المبانى الأثرية فى شمالى ما بين النهرين »(١)

ولهـذا الجسر أسماء عديدة أطلقها الناس عليه فى ظروف ومناسبات مختلفة . من ذلك : الجسر العباسى ، جسر العباسيات ، جسر الخابور ، جسر دلالى ، جسر الإسكندر ، جسر الحسنية

ويلاحظ القارىء أن اثنتين من هذه التسميات أُطلقتا عليه بالنظر إلى موقعه : « جسر الخابور » يشير إلى أنه يركب متن هذا النهير ، كما أن « جسر الحسنية » يدل على أنه شيد عند بلدة الحسنية . أما سائر التسميات فقد أطلقت عليه بناء على ما شاع بين الأهلين هناك من الروايات والأساطير التى لا تدعمها الحقائق الراهنة ولا تؤيدها المستندات التاريخية

(١) Conrad Preusser : Nordmesopotamische Baudenkmäler Altchristlicher und Islamischer Zeit. (Leipzig, 1911, pp. 22—23).

٢ — موقعه

على نحو من ميل واحد شرق بلدة زاخو ينتصب « الجسر العباسى » فوق نهير الخابور الذى ينبع من الجبال الممتدة فى جنوبى أرمينية(١) ، ثم يسير متعرجاً بين ثنايا تلك الجبال حتى يصب فى دجلة فوق قرية « فيشخابور »(٢) على نحو من ٧٥ ميلاً شمالى الموصل ؛ أى عند الحدود العراقية التركية . وهذا الخابور هو المعروف فى المؤلفات العربية القديمة ب « خابور الحسنية » نسبة إلى البلدة المعروفة بهذا الإسم(٣)

وقد تطرّق البحّاثة المستشرق (لسترنج) فى كتابه الموسوم ب « أراضى الخلافة العباسية » إلى ذكر هـذا النهير وجسره فقال : « إن هذا النهير كان يخترقه جسر حجرى لا تزال بقاياه ماثلة للعيان قرب قرية حسن آغا التى ربمـا تمثل المدينة القديمة . إن الحسنية التى كان فيها جامع تصلى فيه الجمعة قد وصفه المقدسى(٤) بقوله إنه موقع ذو خطر »(٥)

ويبدو لنا من كلام (لسترنج) أن الأمر قد اختلط عليه بعض الشىء ، فلم يفرق بين الجسر العباسى الذى نحن بصدده ، وبين جسر آخر ما زالت بعض معالمه ظاهرة للعيان ، كان فيما مضى يعلو الخابور ذاته ، ويطلق عليه « جسر كَيْسَتَه »(٦) بينه وبين الجسر العباسى نحو من ثمانمائة متر

ولا يزال الجسر العباسى صالحاً بعض الصلاح لمرور السابلة من فوقه ؛ وقد كان فيما مضى المسلك الوحيد الذى تسلكه

(١) راجع مفصل جغرافية العراق لطه باشا الهاشمى « بغداد سنة ١٩٣٠ ، ص ١٣١ — ١٣٢ »

(٢) سماها ياقوت الحموى « معجم البلدان ٣ : ٩٣١ طبعة وستنفلد » فيشابور ، وقال إنها « بليد من نواحى الموصل من ناحية جزيرة ابن عمر ، لهم فيه وقائع »

(٣) معجم البلدان ٢ : ٢٧٠ ، ٣٨٤ . وجاء فى دائرة المعارف الاسلامية مادة « خابور » أن « هـذا النهير يخترق سلاسل الجبال التى تسمى اليوم « حربال » « فى الشمال » ، و « زاخا » « فى الجنوب » . وهذه الجبال الأخيرة أخذت اسمها من اسم مدينة « زاخو » التى كانت تعرف فى العصور القديمة باسم « آزوخيس » Azochis

(٤) أحسن التقاسيم للبشارى المقدسى « ص ١٣٩ ليدن »

(٥) G. Le Strange : The Lands of the Eastern Caliphate. p. 93

(٦) كيسته : قرية صغيرة على خابور الحسنية أسفل زاخو بينهما مسافة نصف ميل

القوافل حينما تقصد من الأنحـاء الشمالية المختلفة ؛ أما « جسر كيسته » فلا أثر لقناطره اليوم ، لأن يد الدهر سطت عليها ، وعملت على تقويضها حجراً بعد حجر ، ولم تبق منها اليوم سوى ركائز قواعدها الحجرية المغروزة فى المـاء

٣ — صفته

يبلغ طول الجسر العباسى ١١٤ متراً ، وعرضه ٤ أمتار و٧٠ سنتمتراً وهو يتقوم من خمس قناطر تتفاوت شكلا واتساعاً ، فأكبرهن تكاد تعلو عرض الخابور بكامله هناك ؛ إذ تبلغ فتحتها ١٦ متراً ، وارتفاعها عن مستوى سطح ماء الخابور فى أيام انتقاصه زهاء ١٥ متراً ، ومن هنا تتجلى لنـا عظم المصاعب التى تجشمها البناؤون أثناء تشييدهم هـذه القنطرة الواسعة ! ومن يلق نظرة على صورة هـذا الجسر ير ريازة هـذه القنطرة من الطراز المعروف ب « المبسّم »

ثم يلى هذه القنطرة سمة ، قنطرة ثانية فتحتها ١١ متراً ، على شكل يقرب من نصف الدائرة . أما الثلاث الباقيات ففتحاتهن أصغر من السابقة وهنّ على شكل أنصاف دوائر[1]

وطبيعى أن يؤدى هذا التفاوت فى اتساع القناطر إلى ارتفاع وسط الجسر وانحدار جانبيه حتى يتساوى وسطح الأرض عند حافتى مجرى النهر

ويلاحظ المرء أن ثلاثاً من هذه القناطر شيدت على يسار[2] القنطرة الكبيرة — باعتبار مجرى النهر — وواحدة فقط على يمينها[3] .

شُيد الجسر العباسى من حجارة مُزَلَّمَة ، مختلفة الحجم ، قليلة الهندام ؛ لكنها مرتبة بنظام ، وقد تلاحكت بعضها ببعض بالملاط القوى

وقد يبدو هذا الجسر للناظر ، لأول وهلة بسيط التركيب ، ضعيف القوام ، لكنه بالرغم من مظهره هـذا ، عاش قروناً طوالاً ، وعارك فيضانات الخابور المتدفقة من أعالى الجبال المحيطة بتلك البقاع ، ومياه الخابور ذات أمواج متلاطمة مزبدة ، وهى فى صراع دائم مع الصخور الصلبة التى تكوّن قعر النهر ، وهذا ما يسبب تيارات ودوّارات مائية سريعة تجعل الملاحة فيه كالمستحيلة

فوق هذه الأرض الصخرية القاسية شيد الجسر العباسى بقناطره الخمس ودعائمه الراسخة

وقد تطرقت العالمة الرحالة (جرترود بيل) إلى هذا الجسر فى رحلتها المعروفة « من مراد إلى مراد » ؛ لكنها قالت إنه يتألف من أربع قناطر[1] ، بينما هى فى الواقع خمس كما أسلفنا .

٤ — تشييده :

تضاربت الروايات فى أمر تشييد هذا الجسر ، وذهب الحدس والتخمين فى ذلك كل مذهب ، وما ذلك إلا لعدم وجود كتابة عليه تفصح عن زمن تشييده ، أو نقوش تسعف الباحث فى تقدير تاريخه ، فضلاً عن صمت المؤلفات القديمة وعدم ذكرها له . ولأهالى تلك البقاع أسطورة يتداولونها فيما بينهم ، ومنهم سرت إلى بعض كتب الرحلات الأجنبية[2] . وخلاصتها أن هذا الجسر كان على ما يقولون قد سقط ثلاث مرات متتاليات عند محاولة تشييده ؛ حتى نفد صبر البنائين وضاقوا ذرعاً بالأمر ، فقال رئيسهم : يا قوم إن قائمته لن تقوم ما لم يُضَحَّ فى سبيله بدم بشرىّ ، على أن تكون ضحيته أول عابر طريق

وما هى إلا هنيهة وجيزة حتى أقبلت بنت عذراء اسمها (دلال) فساقها القدر إلى أن تكون أول من يقع عليها القرار الذى أشار به رئيس البنائين ، فاستيقنت تلك الفتاة قسراً وأُدمجت فى الحال ببناء الجسر وهى حية ، وترك طرف ذراعها ذات

(١) هذه القياسات مأخوذة من كتاب « برومر » المار الذكر

(٢) فى هذه الجهة من النهر يشاهد الجبل المعروف ب « جبل يخين »

(٣) فى هذه الجهة من النهر وعلى مقربة من الجسر قرية صغيرة تعرف ب « العباسية » على اسم الجسر

(١) G. L. Bell : Amurath to Amurath. (2 nd ed., 1924 ; p.269).

(٢) راجع مثلا الرحلة المسماة Form Monte to Mosul. (p. 135)

السوار الذهبي بادياً للعيان ، ولكن من كانت تلك الفتاة يا ترى ؟ إنها كانت ابنة رئيس البنائين نفسه . ولكن هل لذلك الرئيس من عيص وقد سبق السيف العذل ! وللأهالي القاطنين تلك البقعة أشعار وأغانى باللغة الكردية يتناقلونها صاغراً عن كابر ويتلونها في ذكر دلالى ، وفى عظم الفاجعة التى حلت بها ، وهذه الأشعار ذات لون أدبى خاص ، وتعد من أجل القطع الأدبية الشعبية

هذا ملخص الرواية الشائعة هناك رويناها دون أن نبدى رأياً فيها ، لأن المراجع القديمة الموثوق بصحتها لا تساعدنا فى هذا الشأن

وقد ذهب فريق من الكتبة المحدثين إلى أن تشييد هذا الجسر كان قد تم على أيدى الرومان ؛ فإن هؤلاء القوم اجتازوا بشمالى العراق فى المائة الرابعة قبل الميلاد وعبّدوا مسالك عسكرية ومنها الجسور لتمر عليها جيوشهم الجرارة الذاهبة لمنازلة الفرس

من ذلك ما زعمه (هموتن) بقوله فيه إنه « جسر رومانى فخم معقود فوق أحد روافد دجلة عند زاخو ... وصار يعرف على مَرّ الأزمان بجسر الإسكندر[1] » ؛ ثم ساق رواية دلالى المارة الذكر

ونحن نرى فى هذا الرأى تساهلاً كبيراً ؛ إذ يصعب صمود هذا الجسر مدة تزيد على الألفى سنة يقاوم فيها عن الزمان وتصرفات المياه

والذى انتهى إليه (بروسر) فى درسه هذا الجسر أنه لا شىء يوثق به فيما يخص تشييده ؛ ومع ذلك فقد ذهب إلى أنه شيد فى المائة السابعة للهجرة (بين المائة الثانية عشرة والثالثة عشرة للميلاد) ، وإنه بهذا الاعتبار من الآثار التاريخية الماثلة للعيان التى تعود إلى أواخر أيام الدولة العباسية .

(بغداد) ميخائيل عواد

(١) J. A. Hammerton : Wonders of the Past. (Vol. 3., p. 1130).

بعـــد يومين

أم كلثـــوم

تعـــود إليكم

بعـــد التعديل الجديد

مع { سليمان نجيب — عباس فارس — إبراهيم حموده
منسى فهمى — عبد الوارث عسر — فؤاد الرشيدى
محمود رضا — حسن كامل — فردوس حسن
مارى منيب — نجمه ابراهيم — ساميه فهمى }

فى عايدة

إخراج : أحمد بدرخان تصوير : محمد عبد العظيم

بسينما ستوديو مصر

ابتداء من ٢٠ سبتمبر ٤ حفلات يوميا